

الفصل الأول

في البداية

«الموهبة الطبيعية من دون تعليم غالباً ما حققت المجد والفضيلة أكثر مما حققه التعليم من دون موهبة طبيعية».

ماركوس توليوس شيشرون
 Marcus Tullius Cicero
 الكاتب الروماني وخطيب روما المميز

إن أيَّ شخص يعتقد أن تحديد هوية الأطفال الموهوبين وتقديم الاختيارات التعليمية لهم فكرة جديدة أو بدعة عابرة، فإنه إما أن يكون شخصاً ضعيف الذاكرة، أو محدود الإلمام بالتاريخ. مثلما أوضح جوان راند وايتمور (Joanne Rand Whitmore, 1980) منذ أكثر من ثلاثين عاماً:

«يوجد في التاريخ المدوّن قديماً في مختلف الثقافات استثنائية متقدمة أدلة كثيرة على أن الشباب الذين يمتلكون قدرات عقلية متقدمة يتم التعرف عليهم منذ الصغر، كانوا يُقدِّرون ويُفصلون عن جموع الطلاب من أجل تلقي تعليم خاص» (ص 4).

واستطرد وايتمور (1980م) في توضيحه أن الفيلسوف أفلاطون أيّد اختبار الأطفال لاستكشاف مواهبهم (على الرغم من أن مصطلح (موهوب) لم يكن مُستخدمًا وقتها)، ووجد

أن إعدادهم لأدوار قيادية يكون عن طريق تزويدهم بالفرص التعليمية المتقدمة (معارضاً بذلك الاتجاه السائد في ذلك الوقت حين كان القادة يُختارون حصرياً من أرستقراطيي المجتمع). هذه المقاربة المساواتية بينت أن الذكاء العالي إنما يرجع إلى شيء أكثر من مقدار ثراء أولياء الأمور أو شهرتهما. وأضاف كلارك (Clark, 1997): إن محاولات مشابهة للتعرف على الموهبة عند الأطفال اهتمت بها الحكومات في مصر القديمة وروما والصين واليابان.

واستمر هذا (البحث عن الموهبة) في أرجاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة كلها، في العهد العثماني في القرن الخامس عشر، وقد حث الملك شارلمان (نحو سنة 800م) الدولة على البحث عن الذكاء المرتفع بين فئات المجتمع كلها، وعلى تعليم هؤلاء الأطفال عند العثور عليهم، على نفقة الدولة.

وكذلك الأمر في تركيا، حيث تأسست مدرسة في قصر توبكابي للأولاد المتفوقين في القوة والمظهر والذكاء. وفي سنة 1648م، كتب المعلم والمصلح التشيكي جان أموس كومينسكي (Jan Amos Komensky) الملقب بـ (المعلم العظيم)، نصاً يقترح (80) قاعدة بدهية توجّه أداء المعلم. ومن بين هذه البدهيات:

- نحن لا نتعلم ما نعرفه فعلاً.
 - لا تؤجل تعليم شخص مستعدٌ للتلقي.
- وكلتاها لها علاقة اليوم بتعليم الأطفال الموهوبين.

لقد لفت عصر النهضة الانتباه إلى الحاجة إلى داعمين من أجل مساندة الفنانين والنحاتين والموسيقيين، ولعل أعظم مثال لشخص داعمٍ اكتشف الموهبة لدى أحد الأفراد وتكّلف بتعليمه تجده في حياة ليوناردو دافنشي (Leonardo da Vinci, Gelb, 2004). وُلد دافنشي في عام 1452م كابن غير شرعي، لهذا لم يُسمح له بأن يكون عضواً في نقابة

الموثقين⁽¹⁾ التي ينتمي إليها والده، ما جعله غير جدير بالسير على خطى والده وجدّه المهنية، فعمل صبياً مع نحّات ورسام يُدعى أندريه ديل فيروتشيو (Andrea del Verrocchio). برسمه لملاك وبعض المناظر الطبيعية في إحدى لوحات معلمه، استطاع دافنشي أن يلفت نظر لورينزو دي ميديسي وآخرين، حينما قالوا وأصبح قولهم تاريخاً: سيأتي اليوم الذي يصبح فيه ليوناردو دافنشي واحداً من أعظم العباقر على مر العصور. وتقدم - دي ميديسي- هذا الشخص الكريم المعطاء لمساعدة الشخص الذي أبرزت مواهبه مدى تفوقه.

باستعراض حياة الطبيب جين آيتارد نجد مثلاً آخر لشخص دفعه اهتمامه بالبراعة الفكرية الفائقة لأن يدعم طفلاً واعدًا؛ ففي أواخر القرن الثامن عشر، وجد آيتارد ولداً صغيراً يبلغ من العمر 12 عاماً تقريباً في غابات وسط فرنسا، لم يكن لهذا الولد تاريخ ميلاد معروف ولا لغة يتحدثها، وكان سلوكه فجاً، فاعتقد آيتارد أن هذا الولد -الذي سماه فيكتور- قد عاش في الغابات نتيجة لغرائزه وذكائه الفطري، وحاول لسنوات عديدة أن يعلم فيكتور ويهيئ له البيئة الاجتماعية محققاً بهذا قليلاً من النجاح، وأخيراً تخلى آيتارد عن هذه التجربة الاجتماعية - وعن فيكتور نفسه- وتركه تحت رعاية ممرضة اهتمت به لسنوات عدة.

بما أن تجربة آيتارد لم تحقق نجاحاً؛ إذن، ما أهمية هذه التجربة في المساعدة على تطوير تعليم الأطفال الموهوبين؟ إنها بالغة الأهمية؛ لأنه بالإضافة إلى محاولة تعليم هذا الطفل الوحشي، فقد احتفظ آيتارد بمذكراته التي توثق يوماً بيوم النمو العقلي لفكتور وأنماط التعلم التي نُشرت أخيراً باسم صبي أفيرون المتوحش (The Wild Boy of Avayron)، وتحولت بعد ذلك إلى فيلم لفرانسوا تروفو بعنوان (الطفل المتوحش). هذه التجربة الاجتماعية أصبحت واحدة من أولى المحاولات لتحديد العناصر التي تُسهم في تطور عقل الطفل الصغير، وكما كتبتُ في وقت سابق: «إلى يومنا هذا يبقى عمل آيتارد أمراً ضرورياً للدراسات التي تهدف إلى اكتشاف تطور مواهب الفرد». (Delisle, 1992, p.2).

(1) الموثق أو كاتب العدل هو الشخص الذي له السلطة القانونية لتوثيق الوثائق والأوراق الرسمية. (المترجمة).

في غضون ذلك يحدث هذا في أمريكا

«تكون هذه المدارس بإشراف زائر يختار سنوياً طالباً هو الأكثر عبقريةً في المدرسة، ومن أسرة فقيرة لا يستطيع أبواه إكمال تعليمه، ويرسله إلى إحدى المدارس الثانوية التي يُختار منها عشرون في أجزاء مختلفة من البلاد لتعلم اليونانية واللاتينية والجغرافيا والفروع المتقدمة من الحساب، ويُرسَل الأُولاد إلى أي من هذه المدارس على سبيل التجربة لمدة عام أو عامين، والأكثر عبقرية ممن يتم اختيارهم يستمرون بها لمدة ست سنوات، والمتخلف يُطرَد، وبهذه الطريقة سوف يُنتقى بعناية - من بين الأنقاض - عشرون من أفضل العباقرة، ويتعلمون على نفقة الدولة ما دامت المدارس الثانوية قائمة».

توماس جيفرسون 1784م، ثالث رئيس للولايات المتحدة.

حسناً إذن، لقد كان اختياره لكلمتي (انقاض) و(متخلف) طريقة غير معبّرة لوصف الأطفال غير الموهوبين، لكن مهمة جيفرسون واضحة: التعرف على الأطفال الأذكى وتعليمهم بطرق تحترم عقولهم الرقيقة. وباقتصار بحثه على العائلات الفقيرة التي لا تستطيع تعليم أطفالها، فإن جيفرسون يفتح الأبواب لامتياز التعرف على ما عرفه نظراؤه من اليونانيين القدماء والصينيين في القرون الأولى، وهو: «يمكن أن توجد الموهبة في طبقات المجتمع كلها».

لكن، كيف لأحدنا أن يُحدّد بالضبط الشخص الذي يحتمل أن يجد فيه العبقرية؟ هل لنا أن نعتمد فقط على ملاحظات الآخرين الذين يعرفون (أو قد لا يعرفون) الطفل الموهوب عندما يرونه؟ الإجابة (وهناك أكثر من إجابة واحدة) تكمن فيما بدأ يحدث في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، عندما تزامن الاهتمام بالذكاء مع حلول فرع من الفلسفة القديمة الذي أصبح علمًا قائمًا بذاته في السبعينيات من القرن السابع عشر: علم النفس.

وعلى الرغم من أن المعلمين وعلماء النفس يبدون متفقيين (من حيث المبدأ) على ملامح الذكاء، فلا يوجد أحد متيقن تمامًا من أن شيئاً غير متبلور كهذا يمكن أن يُقاس فعلياً؛ لذلك طلبت الحكومة الفرنسية من عالم النفس ألفريد بينيه أن يجد طريقة للتمييز بين الأطفال القابلين للتعلم، وهؤلاء الذين كانوا غير قادرين على التقدم الأكاديمي، وبدلاً

من تصميم تقويمات مرتبطة بمحتوى مُحدّد، مثل الحساب ومهارات القراءة، فإن بينيه (مع زميله ثيودور سايمون) ابتكر اختبارات تقيس خصائص، مثل الانتباه، والذاكرة، والحكم على الأشياء أو إن شئت أن تطلق عليها (الأسس الكامنة وراء التعليم). وبعد عدد من الاختبارات التي حقق فيها الأطفال مستويات كفاية شديدة التمايز، وضع بينيه وسايمنون درجة قطع⁽¹⁾ لهذه الفئات من الطلاب؛ بلهاء، معتوهين، طبيعيين. هذه المصطلحات كانت مجرد توصيفات، ولا تحمل أثرًا تحقيريًا مثلما هي اليوم، وهكذا بدأ عصر صُنّف فيه الأطفال بحسب الرقم الذي يحرزونه في الاختبار على مقياس بينيه - سايمون (Binet-Simon Scale).

وباختيار لويس م. تيرمان (Lewis M. Terman) بوصفه طالبًا لمَّا يُنه دراسته الجامعية في تخصص علم النفس بجامعة أنديانا في أوائل القرن العشرين، أصبح تيرمان مهتمًا بنطاق الذكاء من الأبله فما فوقه، وقد كتب في حلقة نقاش مشروع التخرج تقريرين؛ الأول عن العجز العقلي، والآخر عن الذكاء البالغ.

أصبح تيرمان مطلعًا من خلال عمله على مقياس بينيه - سايمون المنشور، وما إن سجل في برنامج الدكتوراه بجامعة كلارك، حتى استمر في اكتشاف عالم الذكاء مقارنةً بمجموعتين من الطلاب؛ الذين كانوا (متخلفين عقليًا)، وذوي الذكاء الحاد، بحسب مقياس بينيه - سايمون. وقد أقرّ في إحدى محاضراته (1954م) أن: «التجربة أسهمت بقدر ضئيل، أو لم تُسهم بشيء على الإطلاق في العلوم، ولكنها أسهمت كثيرًا في تفكيري المستقبلي» (ص222). وقد يكون ما قاله مجافياً للحقيقة.

بعد ذلك بزمان قصير وبينما كان في الكلية بجامعة ستانفورد، راجع تيرمان مقياس بينيه - سايمون في 1916، ونشر أول اختبار ستانفورد - بينيه للذكاء، وهو اختبار فردي نتج منه اختبار معدل الذكاء (IQ)، الذي أصبح نموذجًا قويًا للقياس، لدرجة أنه ما زال يُستخدم حتى يومنا هذا وبعد مرور قرن كامل.

(1) درجة القطع cut-off score هي نقطة على متصل درجات الاختبار تستخدم لتصنيف الطلاب إلى فئتين تعكس مستويات الأداء المختلفة المراد قياسها في الاختبار بالنسبة إلى هدف معين. (المراجع).

حقق تيرمان بنشر هذا الاختبار المؤهلات المهنية التي كان يحتاجها للوصول إلى طموحه؛ استكشاف عالم الذكاء النادر، وقد استفاد من منحة صندوق الكومنولث لمدينة نيويورك، وكان في موضع التحدي ليحدد الأطفال الذين كان معدل ذكائهم ضمن مجال العبقرية (140) وما فوق ويتناولهم بالدراسة، فوجد من هذا النوع (1528) طفلاً - واستمر يتابع تطور حياتهم وتعليمهم لعقود، فنتجت من ذلك أبرز دراسة نفسية طويلة؛ المؤلفة من خمسة مجلدات (الدراسات الجينية للعبقرية).

لقد كُتِبَ كثير عن تراث تيرمان، وليس كل ما كُتِبَ إيجابياً (Leslie, 2000)، فقد توجهت دراساته بالدرجة الأولى إلى البيض والطبقة المتوسطة، ومع ذلك طبقت تعميماته عن الذكاء على الأفراد كلهم. وبمرور الوقت، اكتشفت هوية بعض الأفراد من (النمل الأبيض⁽¹⁾ Termites) كما كانوا يُسمَّونهم، فكان منهم جس أوبنهيمر مبدع وكاتب المسلسل التلفزيوني (أحب لوسي)، وإدوارد دريميتريك مخرج سينمائي يتضمن رصيده السينمائي (تمرد على السفينة كايبين)، ولي كرونباخ عالم النفس المعروف والرئيس السابق للجمعية النفسية الأمريكية. وسجلت مئات من براءات الاختراع والكتب والاختراعات، ونسبت إلى هذه المجموعة الجليلة التي تضم (1528) شخصاً، وكما بيَّن تيرمان لاحقاً (1954م) في سيرته المهنية: «لم يُصب أحد من هذه المجموعة بغباء ما بعد المراهقة» (ص227). هذا التعليق المضحك في الحقيقة أحد أهم اكتشافات تيرمان، ذلك أن المعتقدات السائدة في القرن التاسع عشر التي تقول «ما ينضج سريعاً يتعفن سريعاً»؛ أي إنه إذا استخدمت عقلك باكراً أكثر من اللازم فلن تجد شيئاً متبقياً للسنوات اللاحقة. وقد ألقى بهذا الرأي في سلة الحقائق المغلوط فيها، فمن الواضح أن الذكاء خصيصة تدوم مدى الحياة، إذا مُنحت فإنها تبقى دوماً.

(1) النمل الأبيض، مصطلح أطلق على أفراد تجربة تيرمان، الذين أصبحوا فيما بعد شخصيات لها وزنها في المجتمع الأمريكي. (الترجمة).

في ذلك الوقت ظهرت ليتا

على بعد آلاف الأميال عن ستانفورد، وفي مدينة نيويورك ظهرت عالمة نفس ذات اهتمام مشابه لاهتمام تيرمان؛ ليتا س. هولنجوورث، بدأت دراستها للأطفال الموهوبين في السنة نفسها التي نُشر فيها ستانفورد - بينيه (1916م). لقد فعلت هولنجوورث ما لم يفعله تيرمان؛ تفحصت الحياة العقلية والعاطفية والتعليمية للأطفال الأكثر موهبة (ممن يتجاوز معدل ذكائهم 180).

كانت هولنجوورث معلمة مدرسة ومديرة، ومع أنها حصلت في النهاية على الدكتوراه في علم النفس، إلا أن ارتباطها بالفصل كان دوماً واضحاً في عملها. وفي سنة 1922م أقنعت هيئة مدرسة مدينة نيويورك بأن تموّل برنامجاً للأطفال الضاحية ذوي القدرات العالية. وبعد سنوات عدة (في عام 1937) أصبحت مدرّسة في مدرسة (Speyer School, P.S. 500) حيث أسهبت في العمل مع أطفال يتراوح معدل ذكائهم بين (130 و200). وفي كتاب يوثق عملها مع هؤلاء الأطفال الصغار المتفردين، ذكرت هولنجوورث (1942م) أن «عقول هؤلاء الأطفال مشغولة في المقام الأول لإستكشاف العالم الذي وصلوا إليه مؤخراً. هذا هو العصر الذهبي للعقل» (ص292).

«يجب عليك فقط أن تنتظر حتى نصل إلى هناك». «اعرض عملك». «أرني الخطوات في كل مرة». «كلا، قد لا تمضي قدماً.. ابق مع الفصل». الخطأ في كل من هذه الجمل هو ما يعرقل التعليم العام للأطفال الموهوبين في أمريكا. يجب أن نولي اهتماماً كبيراً لتقدم أذكى أطفالنا إلى الأمام باستخدام إيقاع مناسب لاحتياجاتهم الخاصة - لا أن نطلب منهم أن ينتظروا حتى يلحق بهم الآخرون - للأسف، فنحن نعوق الإبداع والتشويق بهذه «الأفعال الأكثر سوءاً». يجب أن يحصل الجميع على الإعداد المناسب.. أعيدي التفكير في هذا يا أمريكا!

روثي ماننغ - فريمان، معلمة منذ عام 1975م

يمكن تحديد الفرق بين عمل هولنجوورث وعمل تيرمان في الآتي: اعتقدت هولنجوورث أنك إذا كنت ذا قيمة فهذا يعني أنك عرضة للنقد، ورأت أنه عندما يكون للأطفال ذكاء البالغين وعواطف الأطفال، فقد تنشأ مشكلات معينة. من بينها:

- مشكلات اللعب والصدّاقة، فمفردات الطفل الموهوب وتفضيله للألعاب المعقدة وأهمية القواعد، قد لا تكون موضع تقدير لدى الأطفال من الشريحة العمرية نفسها وذوي القدرات الأقل.
 - مشكلات تتعلق بالمناهج المدرسية الباهتة، إذ إن هولنجوورث (1942م) اعتقدت أن الأطفال ذوي معدل ذكاء (140) يضيعون نصف وقتهم في الدراسة، بينما يقضي ذوو معدل الذكاء الأعلى من (170) وقتهم وهم يعملون «بمختلف أنواع الأنشطة الغريبة والمضيعة للوقت» (ص299)، تحت ستار (التعلم).
 - مشكلات بأن يصبحوا سلبيين تجاه عناصر السلطة، بخاصة عندما يجد الأطفال الموهوبون أنفسهم مجبرين على تدارك أخطاء البالغين أو إساءة فهمها، ويطلب منهم: «أن يلتفتوا إلى تصرفاتهم»، بدلاً من أن تؤخذ رؤاهم الذكية الدقيقة بكل جدية.
 - مشكلات استخدام ذكائهم لخداع الآخرين، وهو ما سمته هولنجوورث (الخداع اللطيف)، أو عندما يُعلي الأطفال الموهوبون من شأن ذكائهم على حساب الآخرين الأقل ذكاء. لقد سلمت هولنجوورث بأن هذه مهارة يتقنها كثير من البالغين الأذكياء، لكنها تحذر من أن يستغلها الأطفال لتحقيق مكاسب لهم؛ فقد جعلهم معزولين، وتعيدهم إلى مخاوفها الأولى بشأن اللعب والصدّاقات.
- لم ينل عمل هولنجوورث في حياتها التقدير الذي يستحقه، ولكونها أنثى فنادرًا ما كان عملها يؤخذ من قبل مديري المؤسسة التي تمولها على محمل الجد، ومع ذلك أصبح عمل هولنجوورث في وقت لاحق عملاً إبداعياً مثله مثل عمل تيرمان، لكنها وُلدت في عصر تجاهل فيه إنجازاتها لكونها امرأة..

المد والجزر في تعليم الأطفال الموهوبين

مع أمثال هذين الداعمين القويين للأطفال الموهوبين؛ تيرمان وهولنجوورث، قد تظن أن القوة الدافعة التي تدفع بإرثهما البحثي ستظل تتحرك إلى الأمام في خط مستقيم وفي مسار متصاعد. حسنا فلتُعدّ التخمين مرة أخرى.

أكثر من أي فرع آخر من التعليم الخاص، يُنظر إلى تعليم الطفل الموهوب على أنه تعليم يمكن الاستغناء عنه وليس أساسياً؛ لذلك عندما تصبح الأوقات عصيبة، والأموال نادرة، تكون برامج الموهوبين على لائحة الفرص لأسباب أشرنا إليها آنفاً - النخبوية، العنصرية، أو تعدد رفاهية غير ضرورية. وحيث إن الأطفال المعاقين هم مجموعة تتعاطف معها وتدافع عنها، فإنه من الأصعب أن تدافع عن فئة من المتعلمين - الأطفال الموهوبين - الذين هم ناجحون في المدرسة أصلاً، بالإضافة إلى الشعور الإجمالي بالفتور الذي يخالط كثيراً من الناس، من بينهم كثير من المعلمين - عند تقديم خدماتهم للطلاب الموهوبين؛ لذلك فإن الداعمين لتعليم الأطفال الموهوبين قد يجدون أنفسهم أيضاً في اضطراب سياسي عظيم؛ لذا عندما تكون دولتنا بنمط أزمة جماعية، يزدهر تعليم الأطفال الموهوبين، بينما يتراجع عندما يكون السياسيون غير مهتمين بمستقبل بلدنا.

لا يوجد مثال على استخدام تعليم الأطفال الموهوبين لعبة سياسية أوضح من إطلاق روسيا للقمر الصناعي (سبوتنك) عام 1957م؛ فعندما حدث هذا، أصبح كل ما تهيمن عليه أمريكا من بحوث علمية موضع شك؛ وطُرحت أسئلة كثيرة منها: هل يمكن أن يصل هؤلاء الروس البائسون إلى القمر قبلنا؟ وقبل أن تتلاشى الفكرة! انطلق بين عشية وضحاها تغيير ينادي برفع مستوى نظام التعليم، لا سيما في الحساب والعلوم، حتى لا يعلو أحد فوق الولايات المتحدة. وتمت الموافقة على منح تعليمية لا تعد ولا تحصى، وأنفقت ملايين الدولارات لتصميم مناهج تتماشى وطلاب دولتنا الأكثر ذكاء، وفي سنة 1958م أقر الكونجرس القانون الوطني لحماية التعليم - الذي يؤكد أن تعليم الأطفال الموهوبين على رأس الأولويات. كان هذا لسنوات قليلة على أي حال، ولكن عندما بدأت حركة الحقوق المدنية على نحو جاد في الستينيات من القرن العشرين أصبح تعليم الطفل الموهوب قضية مؤجلة، وفي خضم الحرب القوية بين المساواة والامتياز، انتصرت المساواة.

لقد أصبح من الصعب تماماً أن تكون مدافعاً عن الأطفال الموهوبين، وأولئك الذين كانوا يدعمون برامج الموهوبين متهمون بأنهم يتقاضون اليوم الأموال بدلاً من الأطفال الذين يحتاجونها فعلاً. ولم يساعد أن أغلبية الأطفال الذين صُنّفوا موهوبين تبعاً لعينات

تيرمان - البيض والطبقة المتوسطة - ليسوا أكثر من خليط عرقي لأمتنا، متجاهلين أن مفهوم (مختلفون لكنهم متساوون)، وإن لم تكن له أرضية دستورية إلا أنه مفيد في برامج تعليم الطفل الموهوب، لقد جاء معلمو الطفل الموهوب ليمثلوا التمييز العنصري الجديد.

تراجع البندول قليلاً في عام 1972م، عندما نشر مفوض التعليم سيدني مارلاندي تقريراً ممولاً من الكونجرس يُسمى (تعليم الموهوبين والباقيين)، وكان من نتائج تقرير مارلاندي الآتي:

- يوجد قرابة مليوني طفل موهوب في أمريكا، نسبة ضئيلة منهم فقط هي التي تستفيد من البرامج الخاصة.
- أكثر من (50%) من الأطفال الموهوبين لا يؤدون بالمستوى المساوي لذكائهم.
- أكثر من (50%) من مديري المدارس يعتقدون أن بعدم وجود أطفال موهوبين في مدارسهم.
- (21) ولاية فقط بها قانون خاص بالأطفال الموهوبين، وحتى هذه القوانين كانت ضعيفة وغير مؤثرة؛ ولم تلعب الحكومة الفيدرالية أي دور.
- برامج إعداد المعلمين في مجال تعليم الطفل الموهوب كانت قليلة العدد.

وفي الحقيقة، تنطوي نتائج تقرير ماريلاند المحزنة على بارقة ضوء واحدة؛ الخاتمة التي وصل إليها هي أنه عندما تُتاح للأطفال الموهوبين فرص تلقي تعليم خاص، وتزداد وتيرة التدريس، فقد تختفي الصعوبات الاجتماعية والعاطفية التي يواجهها الأطفال الموهوبون في المدارس.

ونتيجة لهذا الكشف المتزايد لاحتياجات الأطفال الموهوبين، فقد أسست الحكومة الفيدرالية لأول مرة في عام 1975م مكتباً للموهوبين (OGT) له مدير مستقل، وخصصت له ميزانية (قرابة من 2.5 مليون دولار بدايةً)، وأصبح للأطفال الموهوبين داعم في واشنطن وفي جميع أنحاء البلد، على المستويين القومي والمحلي، وبدأت برامج تعليم الأطفال الموهوبين تتدفق، لكن ليس لمدة طويلة.

صدر قانون آخر من الكونجرس، قانون تطوير التعليم وتعزيزه (the Education and Consolidation Improvement) في عام 1981م، الذي تناول ثلاثين مكتباً فيدرالياً متميزاً، من بينها (مكاتب الموهوبين)، وفككها، وتأسس بدلاً منها برنامج منح تنافسي، تتنافس فيه اليوم ثلاثون مؤسسة على التمويلات المحدودة المتوافرة. وحدث ما توقعه بعض المعنيين في الأمر، حيث قلَّ الاهتمام والتمويل لبرامج الموهوبين، ومرة أخرى فضّل الأطفال ذوو الاحتياجات الحقيقية على هؤلاء الذين يحتاجون إلى خدمات برامج الموهوبين.

وحدث تطور إيجابي في تاريخ تعليم الأطفال الموهوبين في عام 1988م، حيث أقرَّ قانون جاكوب ك. جافيتس لتعليم الموهوبين (297 - 100) الذي قدّم (7.9) ملايين دولار على صورة منحة كبيرة وطويلة الأجل لجامعات المناطق ومدارسها التي ترغب في التعرف على الأطفال الموهوبين (من التجمعات ذات التمثيل المتخصص تاريخياً) وتعليمهم، ومن بينهم الأطفال الملونون والأطفال الفقراء والأطفال مزدوجي الاحتياج⁽¹⁾ (Twice-exceptional)، وتأسس في الوقت ذاته مركز البحث الوطني للموهوبين، وكان مقره جامعة كونيتيكت، وله فروع في جامعات أخرى.

استمر برنامج جافيتس حتى عام 2011م، عندما ألغي تمويله بسبب دراسة الكونجرس التي وجدت أنه (وكثيراً من البرامج التعليمية الأخرى) له تأثير ضئيل في أبناء السكان المعنيين، ومع ذلك وعلى الرغم من هذا الإلغاء، فإن برنامج جافيتس أعيد تمويله مرة أخرى سنة 2014م بتخصيص فيدرالي قدره خمسة ملايين دولار. ربما يكون مبلغاً ضئيلاً، ولكن في ظل التقشف المالي في هذا العصر، إنه لمن المثير للدهشة أن تُمنح أي نقود جديدة، بخاصة لبرنامج يرى المقومون أنه غير مهم منذ سنوات خلت.

أحداث ومنتشورات أخرى قد أثرت بالتأكيد في هذا المد والجزر للخدمات المقدمة للأطفال الموهوبين (انظر الفصل الثاني)، لكن شيئاً واحداً مؤكد؛ على الرغم من أنه لا يوجد متعلم أو مفكر تساءل عما إذا كان يتعيّن تدريس الحساب في المدارس، وعلى الرغم من أنه لم يكن مطلوباً من أي مدير مدرسة ابتدائية الإجابة عن السؤال: «هل نحتاج فعلاً

(1) الطلاب مزدوجي الاحتياج هم فئة الطلاب الموهوبين من أصحاب الإعاقات وصعوبات التعلم.

إلى الصف الخامس؟»، تبقى قضية تعليم الطفل الموهوب مهمة للغاية وسوف تبقى نقاط خلافية في هذا المجال من الدراسة.

من الواضح أنه لم يفهم أحد أن (التميز) و(المساواة) ليسا متضادين، ولكنهما إلى حد ما وجهان لعملة واحدة؛ لأنه عند منح - أي طفل - الأدوات التي يحتاجها للنجاح بحدوده القصوى، فهذا مثال على التميُّز في العمل. وجزئية العدالة في هذه المعادلة تبرز عندما نعرف أن هناك خطواتٍ واستراتيجيات متعددة تُتخذ لصالح الأطفال ذوي القدرات المتنوعة ليصلوا إلى أهدافهم، فأى شيء أكثر إنصافاً من الارتقاء بالتميز من خلال طرق متنوعة!

إذن، لماذا درس التاريخ هذا ؟

من كان يعلم أن مجال دراسة حديث مثل تعليم الطفل الموهوب له جذوره في الحضارات القديمة؟

هذا الانبهار القديم بالأطفال الذين تجاوزوا حدود الذكاء التقليدي مر بتغييرات أكثر من التي تمر بها الحرباء في مصنع طلاء.

ما زالت الأسئلة المحورية باقية بعد مرور قرون على زمن طرحها أول مرة؛ ما هي الموهبة؟ هل يمكن أن تُعرَّف باختصار؟ وإذا استطعنا أن نعرّفها، فهل من الضروري فعلاً أن نرعاها من خلال برامج مدرسية خاصة؟

لا تتردد! إذا كانت لديك طفلة في العاشرة من عمرها على استعداد لدراسة التفاضل والتكامل! نظّم لها دروسها فيهما. لا يوجد حد أدنى للسن القانونية لممارسة بعض الأنشطة والخدمات أو الامتيازات؛ فالسن لا تهم أبداً بقدر ما تهم في المدرسة، والسن والقدرة يجب ألا يكونا متطابقين في عالم الموهبة الحقيقي، ومع أننا نحتاج الكثير لدعم تطوير الموهبة، وقيمة التدريب؛ إلا أنه لا يوجد حد أدنى للسن التي يجب أن يصل إليها الإنسان ليُظهر معرفة استثنائية أو قدرات في أي موضوع أو مهارة. دع الطلاب يتقدمون من خلال منهاج الروضة K_12؛ منهج بوتيرة تتناغم مع القدرات وليس السن.

كولين هارسين، مدير أكاديمية دافيدس -ولاية نيفادا، مدينة رينو

في البداية، لم تتوافر أرقام كي تؤخذ في الحسبان، ولم تكن هناك نقط متفق عليها لمعدل الذكاء؛ حيث إن الثقافات الفردية هي التي تحدد الذكاء وتعتمد على الاحتياجات المجتمعية، فالشيء المؤكد أنه في الثقافة الزراعية يكون الأذكي هم الأعضاء الذين حوّلوا الحقول البور إلى حالة الإثمار، والذين وجدوا طرقاً جديدة للحصول على الماء لري الأرض القاحلة. أما في مجتمع يقيس الذكاء بما يقدمه الشخص من حوار منطقي عاطفي وبأسلوب جيد، فيأتي الفلاسفة والمفكرون المتعمقون في التفكير ليحتلوا المكانة الأذكي، وكذلك في مكان وزمان يكون فيهما التعبير الفني أعلى صور الإنجاز، يُصنّف الرسامون والموسيقيون على أنهم الأكثر أهلية للإبداع الفني بالسليقة.

لكن الخلاف ما زال مستمراً حول تعريف مقومات الموهبة، حتى بعد أن أصبحت اختبارات معدل الذكاء معروفة، وأصبح من الممكن تصنيف ذكاء الناس إلى مستويات بعدد مكّون من خانتين أو ثلاث خانات (آحاد وعشرات أو آحاد وعشرات ومئات)، وجزء من هذا سببه أننا ما زلنا نعيش في عالم متنوع ومعقد ثقافياً، لدرجة أن تحديد وجود موهبة لدى طفل في ضاحية كونيكتيكت، يختلف عن تحديد الطفل الموهوب الذي ينمو في الغابات الاستوائية الأمازونية، وكما لاحظ العالم ستانلي جاردن المتخصص في الأنثروبولوجيا: «إذا أعدّ أحد أبناء سكان البلاد الأصليين اختبار معدل الذكاء، فمن المحتمل أن يفشل فيه أبناء الحضارة الغربية كلهم».

إذن إذا لم يكن اختبار معدل الذكاء، فماذا؟ يجب أن تتوافر طرق كثيرة يستطيع الإنسان بها التعبير عن ذكائه - من خلال الكلمات والأرقام والتصرفات - هل يجب أن يبقى مجال تعليم الطفل الموهوب مقتصرًا على عدد قليل أو منفتحًا على شريحة كبيرة؟ فإذا حددنا نسبة من (3% إلى 5%) من أي سكان على أنهم موهوبون (وهو ما يتم على وجه العموم في المدارس اليوم)، فهل يعني هذا أننا بخلاء أكثر من اللازم؟ هل إذا قلنا إن أكثر من (25%) من السكان يمكن أن يكونوا موهوبين دومًا (كما يعتقد بعض أصحاب النظريات)، إذا هيئت لهم الظروف الملائمة، فهل نعدُّ هذا تقليلاً من شأن تعريف (الموهوب) إلى حد اللامعنى؟ ماذا عن نتائج اختبارات الأطفال الذين يتمتعون بأعلى المستويات من الذكاء،

ويكون أداؤهم ضعيفاً في المدرسة؟ هل يجب أن يُنظر إليهم على أنهم موهوبون أم يتعين على هؤلاء الأفراد أن يثبتوا مواهبهم بانتظام عن طريق أدائهم الدائم بوصفهم أفضل من ينجزون المهام ويحققون الأهداف؟

هناك أخبار جيدة؛ من السهل العثور على إجابات عن هذه الأسئلة، وهناك أخبار سيئة؛ يتفق عدد قليل جداً من الناس على أي الإجابات هي الصحيحة.

ربما يكون هذا التشوش في تعريف مصطلح (الموهوب) نفسه هو الذي سبب هذا السعي المتقطع بمرور الزمن، ومن الصعب أن نخدم الأطفال الموهوبين جيداً ما لم نستطع أن نتفق على مَنْ هم، ومن الصعب أن ندافع عن حق مجموعة من المتعلمين عندما لا نستطيع أن نثبت بإيراد الدليل والحجة أن جهودنا تجاههم ستضمن تحقيق نتائج إيجابية؛ فمجال تعليم الموهوبين مليء بالإيجابيات والسلبيات.

